مجلة الهلال

ديسمبر 2004

إبراهيم باشا الكبير

بقلم د. رءوف عباس

فى التاريخ شخصيات تلعب أدوارا هامة فى تاريخ بلادها، ولكنها لا تنال حقها من اهتمام المؤرخين، ربما لأن دورها جاء فى إطار مشروع يعود الفضل فيه لصاحبه، أو فى سياق سياسة كان لها دور معين فى تنفيذها، ولكن صاحب السياسة يخطف الأضواء وحده، فلا يحظى من شاركوا فى صنعها إلا ببصيص منها.

من هذه الشخصيات إبراهيم باشا الإبن الأكبر لمحمد على باشا، باعث النهضة المصرية الحديثة، فرغم دوره الأساسى فى بناء القوة العسكرية التى استند إليها مشروع والده، وفى قيادتها فى مختلف الميادين، والدور المحورى الذى لعبة فى بناء الكيان الإقليمى الذى سعى والده إلى إقامته، رغم ذلك كله لم ينل إبراهيم من اهتمام المؤرخين إلا قليلا قياسا بما ناله محمد على، ونظر إلى دوره الخطير على أنه دور ثانوي، لا يذكر إلا فى سياق أعمال والده ولا نجد ترجمة مستفيضة له فى العربية أو غيرها من اللغات.

ولكن إبراهيم باشا كان شخصية فذة، جديرة بتسليط الأضواء عليها، لا يبرر ذلك ما أثير حوله من جدل فحسب، بل لما للدور الذى لعبه فى بناء"دولة محمد على" من أهمية فى تاريخنا القومي.

الشك فى نسبه

وأول ما يواجه من يقرأ تلك الشذرات التى تناثرت هنا وهناك من سيرة إبراهيم ما أثير من شكوك حول نسبة والزعم بأنه كان أنبا لأمينة زوج محمد على من زوجها الأول، وأن محمد على تبناه بعدما تزوج منها. ولعل تلك الشكوك التى جاءت من صنع عباس ابن أخيه طوسون ومن التفوا حوله من العناصر التركية التى أضمرت الكراهية لإبراهيم بسبب صرامته فى التعامل مع من خدموا تحت قيادته، ومساواة الترك والمصريين فى المعاملة، ولما كانت تسوية لندن 1841 التى صدر بموجبها الفرمان الذى جعل من مصر وملحقاتها إرثا تتعاقب على حكمه أسرة محمد على، وأن يكون الحكم للأكبر سنا، فإن ذلك جعل من إبراهيم الوريث الأول للسلطة يليه عباس، ومن ثم كان التشكيك فى نسب إبراهيم يصب فى مصلحة عباس.

وقد استثمرت هذه الإشاعة فيما بعد عندما غير الخديوى إسماعيل نظام الوراثة ليقتصر على من جاءوا من نسله فحرم بذلك سلالة أبناء محمد على الآخرين من اعتلاء مقعد الحكم، فراح هؤلاء يروجون للإشاعة القديمة من قبيل الطعن فى شرعية حكم إسماعيل بن إبراهيم وسلالته وهكذا جاءت الإشاعة من صنع بطانة عباس بن طوسون، واستخدمت أداة فى الصراع على العرش بين مختلف فروع أسرة محمد على.

ويأتى إبراهيم (الذى حمل اسم جده إبراهيم أغا والد محمد على)على رأس من ولدتهم أمينة لمحمد على يليه أحمد طوسون الذى ولد عام 1793 (وسمى باسم عم والده طوسون) وجاء إسماعيل كامل الذى ولد عام 1795 فى الترتيب الثالث، وكان ختام (عنقود) أمينة توحيدة التى ولدت عام 1797، ونازلى التى ولدت عام1799. أما بقية أبناء محمد على الذكور (14ولدا) والإناث (11 بنتا) فقد إستولدهم من جواريه، ومن الغريب أن معظم بنات المستولدات قضين فى المهد فلم تبق منهن على قيد الحياة إلا زينب الرابعة (كان محمد على حريصا على اسم زينب فكرر إطلاقه على من تولد له من البنات كلما توفيت من تحمله)، كما مات فى المهد عشرة من الذكور أبناء المستولدات، فلم يبق على قيد الحياة منهم سوى محمد سعيد، وحسين، ومحمد عبد الحليم، ومحمد على (الصغير). ومن بين الذكور الذين توفوا فى المهد طفلان حملا اسم "إسكندر" وأربعة حملوا اسم "عبد الحليم".

الإبن البكر

وقد أورد محمد على دائما ذكر إبراهيم باعتباره ابنه البكر فى جميع مراسلاته مع السلطان التى يعود أقدمها إلى أكتوبر1806، عندما أرسل محمد على ولده إبراهيم إلى السلطان حاملا رسالة ولاء و"عبودية" وهدايا ثمينة (بعضها معروض الآن بمتحف طوب قابى سراى باستانبول)، وليبقى رهينة لدى السلطان حتى يدبر والده المبالغ المالية المطلوبة من والى مصر، فبقى إبراهيم هناك نحو العام، وكان لهذه الإقامة أثرها فى مشاعر الكراهية التى حملها طوال حياته للأتراك. ولم يكن من المنطقى أن يقبل السلطان ابنا بالتبنى كرهينة.

كذلك يتخذ دعاة التشكيك فى نسب إبراهيم من تعيين طوسون قائدا عاما على الحملة الموجهة إلى الجزيرة العربية عام1809 وحصول طوسون على رتبة الباشاوية وهو فى سن السادسة عشرة ثم تعيين إسماعيل قائدا لحملة السودان، يتخذون من ذلك سندا للقول بأن محمد على فضلهما على إبراهيم لكونهما من صلبه، ولم يتول إبراهيم قيادة حملة السودان إلا بعد مقتل إسماعيل، كما لم يتول قيادة حملة الجزيرة العربية إلا بعد وفاة طوسون بالطاعون عام 1816.

وإذا كان محمد على قد أبلغ السلطان بالاستجابة لطلبه وتوجيه حملة إلى الجزيرة العربية اختار لها طوسون، مما داعا السلطان إلى منحة رتبة "الباشا" (أى رتبة"اللواء")، فقد كان هذا التصرف لمجرد

كسب الوقت، فلم تتحرك الحملة فعلا إلا بعد عامين (1811) عندما استطاع محمد على، بفضل جهود إبراهيم فى الصعيد، أن يقضى على المماليك فى مذبحة القلعة بعد أن اقتلع إبراهيم جذورهم فى الصعيد. وا ٍذا كان محمد على قد عين طوسون قائدا، فقد كان حريصا على أن يكون بجواره بعض أهل الخبرة العسكرية، كذلك فعل مع إسماعيل فى حملة السودان. ويرجع ذلك إلى حاجته الشديدة إلى إبراهيم لمساعدته فى توطيد أركان حكمة فى مصر باعتبارها القاعدة الأساسية التى يقوم عليها مشروعه السياسي.

حاكم القلعة

يؤكد ذلك الدور المهم الذى لعبه إبراهيم منذ وصوله إلى مصر عام 1805 حتى عام 1814 على أقل تقدير. فقد عينه والده حاكما للقلعة(فى أغسطس 1805) حيث معسكرات الحامية العثمانية والمركز الرسمى لإدارة الولاية، وكان– عندئذ– فى السادسة عشرة من عمره، وخصص له مستشارين من ثقاة أهل الخبرة، وظل يشغل المنصب حتى أكتوبر عام 1806، عندما أوفد إلى استانبول حيث قضى نحو العام رهينة فى قصر السلطان. وقبل عودته إلى مصر عام 1807 استصدر والده فرمانا سلطانيا بتعيين إبراهيم فى وظيفة "دفتردار مصر" الذى يتولى إدارة كل ما اتصل بالشئون المالية من أمور. وبهذه الصفة أسند محمد على إليه مهمتين: أولاهما، اجتثاث جذور المماليك فى البلاد عن طريق إلغاء نظام الإلتزام الذى قضى أيضا على نفوذ التجار (رأس المال التجاري) فى الريف، وا ٍصلاح نظام الحيازة الزراعية بإعادة مسح الأطيان وتوزيعها على القرى، وضبط "مكلفات الأطيان" فى إطار خطة محمد على الرامية إلى إحكام قبضته على البلاد، وا ٍزاحة فئة الوسطاء بين الإدارة والناس، وا ٍعادة هيكلة العلاقة بين الحكومة والمنتجين كأفراد سواء فى قطاع الفلاحة أو الإنتاج الحرفي.. فكان دور إبراهيم– بذلك– دورا تأسيسا لا غنى عنه، ولا يستطيع القيام به طوسون الذى عرف عنه التهور والاندفاع أو إسماعيل الذى عرف عنه الإستهتار والطيش، فقد اكتسب إبراهيم بعض صفات أبيه، فكان يتسم بالدهاء، وقوة الحجة، لا يلجأ إلى العنف إلا عندما لا يجد للحيلة سبيلا، يؤكد ذلك ما يورده المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى عند تناوله حوادث تلك السنوات.

أما المهمة الثانية التى أسندت إلى إبراهيم، فكانت تأمين الصعيد، ومطاردة المماليك جنوبا حتى بلاد النوبة، وفرض الأمن فى ربوع الصعيد، وخاصة تأمين الملاحة فى النيل. وهذه أيضا مهمة بالغة الأهمية لتوطيد دعائم الحكم، وضمان وصول الغلال وغيرها من الحاصل إلى القاهرة بانتظام، فى مرحلة دقيقة كان هم الباشا فيها جمع أكبر قدر ممكن من الموارد المالية التى استعان بها على تنفيذ مشروعه السياسي.

ويتضح من ذلك أن إبراهيم كان بمثابة الذراع اليمنى لأبيه فى أدق مراحل إرساء دعائم حكمه، وهى المرحلة التى اقتضت اتخاذ إجراءات حاسمة لوضع أسس تغيير البنية الأساسية لمصر التى بنى عليها محمد على مشروعه التنموى فى القطاع الزراعى وقى قطاع الإنتاج الحرفي/ الصناعى بما ترتب على ذلك كله من تغيرات اجتماعية وسياسية.

ميول عربية

ورغم المهام الخطيرة التى أسنت إلى إبراهيم وهو بعد فتى تتفتح أمامه مرحله الشباب، حرص محمد على أن يزوده وا ٍخوته بما يحتاجون من معارف، فخصص لكل منهم معلمين، كما جعل لهم مستشارين من أهل الخبرة الإدارية والعسكرية. وكان ذلك شأن إبراهيم، غير أن إبراهيم تميز على إخوته بالحرص على تعلم اللغة العربية، والحرص على الحديث بها، ويفسر ذلك العبارة التى نسبت إليه، والتى قال فيها: جئت إلى مصر صغير ا، فأحببت شمسها ونيلها، وأصبح دمى عربيا"، ويعنى بذلك أنه قد تمصر لأن كلمة "العرب" كانت تطلق على المصريين تمييزا لهم عن "الترك" كما يفسر حرصه على أن يضم إلى حاشيته الأدباء والشعراء، مما يكشف عن تذوقه للأدب العربى وميله إليه.

ومما يروى من النوادر فى هذا الصدد مداعبته لأحد الشعراء الذى كان يكره تناول القلقاس، فدعاه إبراهيم إلى مجلسه، وتسامر الجميع حتى حل موعد الغداء، وانتقلوا إلى تناول الطعام، فلاحظ الشاعر أن كل الأصناف على المائدة صنعت من القلقاس، فأمسك عن تناول الطعام، وعندما سأله إبراهيم عن سر ذلك قال: سألوك عن قلبى وكم قاسى فقل قاسى وقل قاسى وقل قاسى فضحك إبراهيم، وأمر بجلب ما يشتهيه الشاعر من أطباق إلى المائدة، مما يعكس رقه حاشيته وتذوقه للأدب.

هذا العشق للأدب العربي، والحرص على التحدث بالعربية، والحرص على مقاومة التمييز بين الترك والمصريين (أولاد العرب)، والحديث إلى الجنود بالعامية المصرية، كل ذلك جعل البعض ينسب إلى إبراهيم ميولا عربية "قومية" فى وقت لم تكن قد ظهرت فيه الفكرة العربية بل يشتط البعض فيزعم أن إبراهيم كان يسعى لإقناع والده بإقامة دولة عربية مستقلة عن الدولة العثمانية. والحق أن إبراهيم كان يشار ك والده نظرته"الإسلامية / العثمانية" التى جعلت الوالد يضع فى أولوياته السيطرة على مقاليد الأمور فى الدولة العثمانية، والعمل على إحياء قوتها بتعميم ما أدخله من إصلاح فى مصر والشام على قاعدة الدولة ذاتها، وبناء قوة عسكرية كبرى تحت قيادته لفرض هيبة الدولة على الساحة الدولية.. فإذا تعذر تحقيق ذلك فى إطار الأوضاع الدولية، كان البديل السعى للإستقلال عن الدولة، أو الحصول على الإستقلال الذاتى الكامل الذى لا يترك للسلطان إلا سلطة اسمية أو رمزية.

الزحف على الأناضول

حقا اختلف إبراهيم مع والده فى خطة الزحف على الأناضول عبر جبال طوروس، ولم يكن مبعث هذا الإختلاف حرصه على التوقف عند الحدود التى لا يجد بعدها من يتحدث بالعربية، كما ورد فى بعض الكتابات دون سند لذلك، لدعم فكرة تحمس إبراهيم "للعروبة"، ولكن كان مبعثه خشية تعريض قواته لمخاطر انقطاع خطوط الإمداد والتموين من مصر عبر الشام لصعوبة تضاريس الأناضول، وعدم وفرة الموارد الغذائية فى هضبة الأناضول مما قد يعرض جيشه للمجاعة، واقترح على والده خطة بديلة يتم بموجبها إنزال القوات المنقولة بحرا للاستيلاء على موانئ غرب الأناضول وتأمينها ليسهل وصول الإمدادات من مصر إليها ثم الزحف السريع من تلك الموانئ إلى استانبول، وتنحية السلطان محمود الثانى بموجب فتوى أصدرها مفتى حلب، وتولية ابنه الطفل تحت وصاية محمد على. وكان إبراهيم يرى فى هذه الخطة ضمان سلامة قواته من ناحية، وسرعة الإستيلاء على استانبول قبل توصل الدول الأوربية الكبرى إلى قرار بشأن القيام بعمل مضاد، مما يجعلها أمام الأمر الواقع.

وجاء اعتراض محمد على مبنيا على خشيته من أن يؤدى تحويل بحر ايجة إلى مسرح للعمليات من تدخل بريطانيا –القوة البحرية العتيدة– ضده كما فعلت فى حرب اليونان. ونبه إبراهيم إلى أن ما تريده بريطانيا هو إضعاف قوات "المسلمين" حتى تسيطر على بلادهم، ولذلك فضل اختراق الأناضول ليظل العمل "داخليا" فى إطار الدولة العثمانية، بعيدا عن البحار الدولية، وهنا دار خلاف آخر بين إبراهيم ومحمد على، إذ أصر إبراهيم على عدم إنقاص المؤن اللازمة للجيش حتى لا يقع الجنود فريسة المجاعة.

ورغم صعوبة العمل العسكرى عبر جبال طوروس، واختراق هضبة الأناضول شديدة الوعورة استطاع إبراهيم أن يصل بقواته إلى كوتاهية التى لا تبعد عن استانبول سوى مائة كيلومتر. وعندما أمره والده بالتوقف عن الزحف استجابة لضغط الدول، حرص على إبرام اتفاقية الصلح التى أعطت محمد على حكم مصر وملحقاتها والشام مقابل الإنسحاب من الأناضول، وجاء اختيار موقع إبرام الإتفاقية (كوتاهية) دليلا على حرص إبراهيم على تسجيل أن قواته بلغت مشارف استانبول، وأن المكاسب التى حققتها الإتفاقية لحكام مصر تمثل حقا كسبه بقوة السلاح.

قائد مميز

وتكشف مراسلات إبراهيم إلى والده عن شخصية القائد الحريص على جنوده، الذى لا يقبل أن يعرضهم للمخاطر، بينما كان والده لا يشاركه هذا الإهتمام، حتى أن محمد على لم يعد يخاطبه مباشرة، بل كان يراسله من خلال "الباشمعاون" تعبيرا عن ضيقه بإصرار إبراهيم على عدم خفض نفقات تموين الجنود، وتوجسه خيفة من إصرار إبراهيم على ترقية المصريين إلى رتب القيادة الوسطي، فقد ألح إبراهيم على أبيه الموافقة على ترقية الضباط المصريين (وكانوا فى الأصل جنودا رقوا من تحت السلاح) إلى رتبة

"البنباشى" (العقيد)، وأصر محمد على إلا يتجاوز المصريون رتبة "اليوزباشي" (النقيب)، بحجة أنهم لم يدرسوا بالمدارس العسكرية، وأن تقتصر الترقية إلى الرتب القيادية الوسطى والعالية على الضباط المماليك. وكان إبراهيم يرى أن الدراسة وحدها لا تكفى مبررا لترقية الضباط، وأن الخبرة القتالية والشجاعة والانضباط لابد أن يكون لها المقام الأول عند النظر فى ترقية الضباط، ونعى على والده تشككه فى ولاء المصريين مؤكدا له أن "إخلاص أولاد العرب لنا يفوق إخلاص الترك، فإذا كان هناك 300 بين كل ألف من الأتراك يخلصون لنا، فإن هناك 700 بين كل ألف من أولاد العرب من المخلصين.."

هذا الإهتمام الكبير بالجنود والتقدير التام للشجاعة والإقدام والانضباط يفسر ما تجمع عليه المصادر المعاصرة من "امتلاكه لقلوب الجنود"، فقد كان حريصا على مشاركتهم فى جميع الأعمال، يتصرف كجندى عادي، ينام على الأرض بينهم، وعلى الجليد فى بلاد الأناضول، ويتناول طعامهم. وأورثة ذلك كله مرض الروماتيزم ثم داء الصدر الذى أودى بحياته فى نهاية الأمر.

حازم متواضع

ورغم قلة المادة المتاحة عن صفاته الشخصية، تجمع المصادر على أنه كان وقورا متواضعا رقيق الحاشية، حازما، لا تشق له عصا الطاعة، لا يتوانى عن عقاب المخطئ مثلما لا يتردد فى مكافأة من يحسن أداء و اجبة.

ويشير نوبار باشا فى مذكراته إلى أن إبراهيم اختاره سكرتيرا خاصا له فى أواخر أيام حكمة للشام، لكونه من أقارب بوغوص بك صفى محمد على، حتى يطمئن والده من ناحيته، ويبدد الشكوك التى سببها خلافة معه حول التوسع فى الأناضول، وكان تقدير إبراهيم أن نوبار سينقل لبوغوص كل أخباره، فتصل إلى محمد على ، غير أن نوبار السكرتير الشاب أحب إبراهيم، ورافقه حتى وفاته، ويصفه بالشجاعة ورباطة الجأش وقت الشدة، وصفاء الذهن، والنظرة الثاقبة فى تقدير الرجال، وعندما صحبه فى رحلته إلى أوربا التى زار فيها فرنسا وانجلترا بحثا عن علاج لما يعانيه من أمراض (1847) ينقل عنه نوبار ما جاء فى حديثه معه من أفكار تمنى على الله أن يقوم بتطبيقها عندما يعتلى كرسى الحكم، ولعل أهم ما فيها تحسين أحوال المعيشة للناس بتخفيف الأعباء الضريبية عنهم، وتحميل الأثرياء النصيب الأوفر منها، وتوفير الرعاية الطبية، وكذلك الإهتمام بالتعليم الأساسى الذى يهدف إلى تثقيف أبناء الشعب وليس مجرد إعدادهم لتولى وظائف الإدارة، وهو ما كان ينوى أن يسميه "مدارس الملة" .

ولكن القدر لم يمهل إبراهيم لتحقيق ما فكر فيه من إصلاح، فلم يمكث فى الحكم سوى ستة شهور انتهت بوفاته فى 20 نوفمبر 1848، وخلفه عباس حلمى الأول ابن أخيه طوسون الذى ظل يكيد له منذ مطلع الأربعينات، ولعل ذلك يفسر ما يذكره نوبار من أن عباس وغيره من أبناء وأحفاد محمد على فرحوا لموت

إبراهيم، فلم يزرف أحدهم دمعة عليه، بينما كان والده هناك بالإسكندرية يعانى من مرض "خرف الشيخوخة" (الذى عرف فيما بعد بالزهايمر).

كان إبراهيم اليد القديرة التى نفذت مشروع محمد على لبناء قوة إقليمية قاعدتها مصر، كما كان آخر الذكور الأحياء من أبناء محمد على من زوجته أمينة (الحرة)، وكان الباقون من أبناء محمد على من أبناء الجوارى، كما كانوا ينتمون إلى جيل أخر لم يعانى مشاق البناء، واهتم بقطف الثمار دون عناء، ولعل ذلك يفسر ارتياحهم لغياب إبراهيم من الوجود (هذا إذا صح ما يذكره نوبار).